اثر الثورة العالمية

في النظام الدولي العام

لحضرة الاستاذ سامي الجريديني

كانت الحرب العالمية من اواسط سنة ١٩١٤ الى اواخر سنة ١٩١٨ ثم عقبتها الهدنة. اما الثورة العالمية فابتدأت في خنادق المتحاربين في سنة ١٩١٧ ولا تزال تعمل عملها في الخفاء تارة وفي علانية تارة اخرى. فمن اكتساح ملك ثبت على الدهر اجيالاً ثم اصبح كأن لم يغن بالامس الى القضاء على حكم رجالية كانت تعدها الناس في مصاف غاية البشرية العظمى. الى دعوة تبث في جميع انحاء العالم مستعينة بالاستياء العام على استبدال نظام باخر او مدنية باخرى.

واما الثورة فلذة في التاريخ لانها لم تقع في بلد واحد دون آخر او في قارة دون اخرى بل تناولت العالم كله في مجموعها.

وليست ثورة سلاح وقتيل واستباحة — الا ما كان منها في روسيا وهنغاريا وانما ثورة فكرية يؤيدها ما وصلت اليه الشعوب من القوة.

فالبحث في نظام الامم وعلائقها الدولية لا يصح ان يسمى بحثاً في نتيجة الحرب او ما بعد الحرب بل هو بحق بحث في هذه الثورة التي نعوم في بحرها مغمورين الى الرأس في مياهها. فقد دعوتها الثورة العالمية لانها تحول — في علاقات الامم بعضها مع البعض الآخر في الغرب اولاً وفي الشرق ثانياً.

* * *

ولا بد من نظرة الى الوراء مرض بادىء بدء الى النظام الذي كان سائداً في الغرب حتى الحرب ثم التغيير الذي طرأ عليه وغير خطة الحكم. ثم نظرة الى النظام الذي كان عليه الشرق — شرقنا الادنى — واتجاه مراميه الآن عسانا ان نجد مبدأ عاماً نستطيع ان نتمشى معه الى الوصول الى غاية الامم من كل نظام او قانون — اعني الحصول معظم الخير والتقدم واكتساب اسباب الرقي في الحياة

كذلك لا بد من الاعتراف بحقيقة تكاد تمس باليد عند كل بحث في العلاقات الدولية — ولا سيما في العلاقات القومية — وهي ان العالم كله يسير الآن مهتدياً بهدي المدنية الاوربية إن خيراً أو شراً

والمدنية الاوربية الآن تفرض على كل الشعوب غربية وشرقية نظامها وشرائعها بل تكاد تفرض على الناس عقيدة [illegible] في عقول الناس من أثر النفوس [illegible] ولهذا يجعل مدار البحث عن النظام الدولي العام او النظام الامي بحثاً في النظام الاوربي وأثره في النظام [illegible]

***

يستوقف نظر الباحث في التاريخ — تاريخ سياسة الشعوب الاوربية وتاريخ قانونها الدولي العام والدولي الخاص — أمر [illegible] في السطور كلها من أوائل القرن التاسع عشر بل قبل هذا حتى الحرب الكبرى [illegible] في كيانها الدولي السياسي والاقتصادي والادبي يرتكز على مبدأ القومية بل ان التاريخ اوربا الحديث ليس في الواقع الا تاريخ تكوين القوميات الاوربية

وليس القانون الدولي العام او القانون الامي الا بحثاً في اعمال الروح القومية [illegible] وبيان آثارها في تكييف علاقات الامم الواحدة منها مع الاخرى [illegible] كانت [illegible] في النظام الاقطاعي [illegible] او كانت وليدة الثورة الانكليزية ثم الفرنسية [illegible] مما لا ريب فيه ان اوربا كانت [illegible] من اوائل القرن التاسع عشر مسرعة الى [illegible] النظام القومي فصار قاعدة [illegible] السياسة الدولية [illegible] معاهدات السلم واصبحت الخارطة الاوربية [illegible] القوميات [illegible] قائمة متشابهة في [illegible]

[illegible] ان نعني هذا الامر [illegible]

[illegible] يسمونه [illegible] (Nationalism)

والذي [illegible] (Nationalité) [illegible] في اوربا [illegible] يجب ان [illegible] (Nationalism) [illegible]

[illegible]

وترجمتها كلمة (Internationalism) بنظام الدولي او الاممي وهو الاصح وان كان معظم رجال القانون يصفونه بالدولي.

فصار حقاً للقاريء عندما تقدم ان يسأل قائلاً : وما القومية ؟ وفي اي شيء تتكون ولماذا تقوم ؟ ثم ما هي القومية ؟ بل ما هي الامة ؟

فانما نقرأ كل يوم في الصحافة اليومية وقليل من الكتاب او القراء من يقف قليلاً ليتفهم مدلولها . ففي الكتابة القومية وفي التكلم عن المبدأ القومي وفي القول ان الشرق ينهض نهضة قومية تحل والامر الجليل قد يلتبس فيه المقال .

فالامر في ذلك جليل عظيم ، وتحديد معانيها من كثير من الدلائل بل يتعين ما الامور كما هي لا كما نتوهمها عن عميانا .

* * *

ربما كان اقرب تعريف لما نقصد من كلمة « امة » القول بان « الامة » قوم يشعرون بوجود رابطة قوية ، حقيقية فيما بينهم تشدهم بعضهم الى بعض فيرتاحون الى المعيشة متصلين ويستاؤون اذا فصلوا ولا يطيقون الخضوع لاقوام لا يشاركونهم هذه الرابطة.

بقي علينا ان نعرف هذه الرابطة التي تكون القومية . أوحدة اللغة هي ام وحدة الدين ؟ أم هي الجنس او العنصر كأن تكون الاقوام التي تؤلف الامة من عنصر واحد؟ أم هي وحدة جغرافية تضم بين حدودها قوماً صاروا امة بعرف النظام الدولي ؟ ام هي رابطة اقتصادية تربط معايش الناس فتشد ما بينهم وتجعل منهم امة ؟

لا ، ليست القومية رابطة من هذه الروابط وحدها او كلها مجتمعة وهي لا تجتمع وما اجتمعت قط في امة واحدة وان كانت بعض هذه الروابط مما يدخل في اساس القومية .

فالوحدة الجغرافية تأخذ بيد قوم ليكونوا امة ولكنها ليست عاملا على حدته في تكوين الامة وليست الاصل الاساسي في هذا التكوين . فانه يصعب عليك كثيراً ان تضع حداً جغرافياً فارقاً بين الامة الفرنسوية والامة الالمانية وهما امتان متصلتان .

بل هذه بولونيا قد أعيت الجنس والسياسة في تحديد تخومها وهي امة .

وخذ اليونان في القدم فانك لا تجد مثلاً اوفق في الجنس منها امة مميزة في

وحدات جغرافية مختلفة الطباع . وعلى الضد من ذلك نرى وحدة جغرافية اسمها هنغاريا ولكنك لا تجد امة هنغارية .

والوحدة الجغرافية ليست الأساس التي تقوم عليه القومية وان كان لها نصيب لا ينكر في تسهيل السبيل اليها .

اما وحدة العنصر فقد كثر خطأ الكتاب في تعريفها فترى أكثرهم يخلطون بين العنصرية او الجنسية Racialism وبين القومية Nationalism ويجعلون هذه في محل تلك . ولا غرابة في ذلك ففريق كبير من رجال القانون الدولي — والالمان في مقدمتهم — يقولون بالجنسية او بالحري بالعنصرية وبوجوب جعلها الفارق بين شعب وشعب فما كان من عنصر واحد اتحد مكاناً يختلف عن مكان من كان من عنصر آخر فقسموا اوربا الى صقالبه وتيوتون ولاتين وما شاكل . وقد اتخذت نظريتهم هذه مقامها في الجامعات الالمانية قبل الحرب حتى ان الاساتذة الالمان انفسهم وجدوا الحرب بتعليمهم اياها .

والنظرية هذه تأخذ على قليل التفكير قريبة المنال الى الطبع الانساني الميال الى التعصب ولكنها خداعة مستحيلة التطبيق وغير حقيقية بالمرة .

ان الشيء الذي لا نزاع فيه هو ان ليس في العالم امة مجبولة من عنصر واحد فقط ولم يتح لعنصر واحد ان يضم في امة واحدة كل الشعوب التي انضمت اليه . بل ان اقوى الامم قومية البسيطة ترجع في اصلها الى اكثر من عنصر واحد كالقومية الانكليزية والقومية الفرنساوية والقومية الاميركية بل كل القوميات في اوربا .

بل ان « العنصرية » او « الجنسية » تحمل جرثومة فناء القومية في ثناياها . فهي والقومية على طرفي نقيض .

ذلك ان القول « بالعنصرية » قول بوجود شعب ينفصل عن جاره بفواصل لا تقبل الاقليم والعادة والشرائع على ازالتها بل هي متأصلة في تركيب العنصر العلمي الفسيولوجي نفسه وهذا مخالف للعلم والواقع .

ثم ان (العنصرية) تفرض حتماً تفوق عنصر على آخر فيصبح من المستحيل ان يتساوى في بلد واحد اقوام من عنصرين فلا يندمجان ولا يكونان امة ويصبح العالم وقد حلت الفوارق العنصرية او الجنسية محل الفوارق الدينية وينقسم الكون الى عناصر كما انقسم الى اديان ومتى وقع الانقسام وقع التنافر والخصام ومن ثم كانت

الحرب محتمة دائماً وهذا ما لا يحول به الشرق بصورة الى وضع نظام شامل يضم كل الامم ويقلل اسباب النزاع فيما بينها (لانكم لا تجوزون ان تخصص بلاد لاختلاف الدين كذلك لا يجوز ذلك لاختلاف الجنس

ثم ان لفترة واحدة الى حرمانه [illegible] ان (العنصرية) مقضي عليها فالالمان مثلاً يرمون الى وضع دعامة امبراطورية جرمانية تضم كل من كانت له عروق تتصل بالعنصر التوتوني وهم [illegible] شعوب تمت بصلة [illegible] القليل من النسب الى هذا العنصر ولكنها اصبحت ذات قوميات خاصة مستقلة عن العنصرية كالانكليز وهولاندا والبلجيك

بل ان التاريخ اثبت انه لا يقبل التأويل ان الامم تتكون من اجناس (عناصر) مختلفة ولكنها امتزجت فذهبت (العنصرية) وبقيت (القومية)

ومثل العنصرية والقومية مثل عنصرين كيماويين مستقلين امتزجا فاوجدا لنا تركيب كيماوي مستقل عن عنصرية الاستقلال كلها

فاذا اخذ الناس بفكرة العنصرية صار الامتزاج بين العناصر صعباً بل مستحيلاً ولكنهم ان تناسوه سهل الاندماج ولذا كان لا بد في تكوين القومية من جرعة عنصرية ثم تنسى العنصرية ثانياً والا لكانوا لم يكونوا بعد امة [illegible] الفروق والقصد الآن لو لم تذب عناصرهم وتضمحل بعضها في بعض

ولم يتمكن المجر ان يكونوا امة في اليوم لاخذهم بفكرة العنصرية واستعلائهم عن الاندماج في العناصر الاخرى.

كذلك قل عن الترك والعرب فيما كان يطلق عليه اسم الامبراطورية العثمانية فان العنصرية وقفت حائلاً دون تكوين قومية عثمانية رغم الوحدة الدينية على ان لهذا الامر اسباباً اخرى سيأتي بيانها بعد

وقد يطول الكلام كثيراً اذا نحن حاولنا التدليل على هذا الرأي مكتفين بتقرير الواقع المشاهد في كثير من الممالك ليس في اوربا وحسب بل في آسيا ايضاً كتركيا والهند مما يؤيد بعد القومية عن العنصرية بعداً شاسعاً.

(يتبع)